ويلاحظ على نص المرزوقي انه جعل (عمود الشعر) الاصل الذي يقاس عليه الجديد .. وانه قرن (الاتي السمح) بالطبع (والابي الصعب) بالصنعة بمعنى آخر اختزل الخلاف بين التيارين الشعريين في مبدأ واحد (الغموض) و (الوضوح) او (المصنوع) و (المطبوع) .

الجرجاني وعمود الشعر :

وعلى طريق الامدي سار القاضي الجرجاني فقرن الشعر المطبوع بالبحتري(٨) وحدد في فقرة مهمة له معايير العرب في المفاضلة بين الشعراء .. فقال (وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وسدّدَ فاغزر ولمن كثرت سوائر امثاله وشوارد ابياته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض)(٩) .

وفي هذا النص حدد ـ على نحو واضح لالبس فيه ـ اركان عمود الشعر بالاتي : ـ

١ . شرف المعنى وصحته
٢ . جزالة اللفظ واستقامته
٣ . الاصابة في الوصف
٤ . المقاربة في التشبيه

وقد نفى القاضي الجرجاني ان يكون البديع ـ الطباق والجناس والاستعارة من خصائص عمود الشعر .. الامر الذي يدعونا الى تصور ان يكون وجود هذا هو الفاصل بين القديم والحديث . لذلك يقول د . احسان عباس ان البديع هو الفارق بين مايسمى عمود الشعر وما هو خارج عنه .. اما عند الامدي فقد كان الفرق بينها اكبر من ذلك بكثير(١٠) .

---

(٨) الوساطة ٢٥
(٩) السابق ٣٣ ـ ٣٤
(١٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٣٣٣

وواقع نص الجرجاني لا يوحي بغياب عنصر البديع في الشعر القديم فقوله ان العرب لم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولاتحفل بالاستعارة لا يعني غير انهم لم يكونوا يقصدون هذا البديع قصداً في شعرهم بعكس المحدثين الذين صار الامر عندهم لجاجة واسرافاً . كما يذهب الى ذلك ابن المعتيز وتابعه المرزوقي اذ يقول :

(وقد كان يتفق من ابيات قصائدهم من غير قصد منهم اليه اليسير النزر فلما انتهى قرض الشعر الى المحدثين ورأوا استغراب الناس بالبديع على افتنانهم فيه اولعوا بتورده اظهاراً للاقتدار ومحاباة الى الاغراب ..)(١١) .

وقد تابع المرزوقي ايضاً القاضي الجرجاني في الاخذ بالاركان الاربعة بصفتها عناصر اساسية لعمود الشعر غير انه اضاف اليها ثلاثة اخرى وهي : ـ

١ . التحام اجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن .
٢ . مناسبة المستعار منه للمستعار له .
٣ . مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لامنافرة بينها(١٢) .

اما الامثال السائرة والابيات الشاذة فهي متولدة عن اجتماع الاسباب (الاركان) الثلاثة الاولى (المعنى واللفظ والوصف)(١٣) وهي عناصر ذات صلة بالمبدع . ويرى باحث معاصر ان الركنين . الاول والثاني (المعنى واللفظ) من عمود الشعر عناصر تكوينية لايكون شعراً الا بهما .. اما الثالث والرابع (الوصف والتشبيه) فهما عناصر حمالية(١٤) . وقد يمكن ان تضيف اليهما الركن السادس (الاستعارة) . اما الالتحام والمشاكلة فمسألة مرتبطة اوثق ارتباط ببناء النص الشعري وتماسك عناصره جميعاً . ولم تغفل هذه الاركان عنصراً يمكن ان يدخل في انتاج النص الشعري المتميز لم تشر اليه فهناك اللفظ والمعنى . (الركن الاول والثاني) والوصف (الركن الثالث) والصورة الشعرية (الركن الرابع والسادس) والبناء العام للنص (الركن الخامس والسابع ولذلك ليس من الحق في شيء ان تذهب مع من يرى ان الاصول في عمود الشعر هي اللفظ والمعنى والوصف .. وما تلاها فروع(١٥) .

---

(١١) مقدمة شرح الحماسة ١٣ .
(١٢) السابق ٩
(١٣) نفسه ٩
(١٤) محي الدين صبحي كتاب الوساطة (مختارات وتعليقات) دمشق ٣٨٨ ـ ٣٨٩
(١٥) تاريخ النقد العربي ٢ / ١٠٢

وليس عبثاً ان يستكمل المرزوقي ماكان قد نقص عند القاضي الجرجاني وما اضافة ليس بالهين فتماسك النص وتلاحمه اساس كان ابن طباطبا كما مربنا قد الح عليه الحاحاً شديداً . ولاتقل الاستعارة اهمية في ذلك في اي نص شعري .

الاستعارة في نظرية عمود الشعر :

والمتتبع لموقف النقاد العرب من الاستعارة لا يستطيع الا ان يلاحظ اهمالاً لهذا العنصر الجوهري ومرد ذلك فيما نعتقد ان القصيدة العربية القديمة لم تكن تعول كثيراً على الاستعارة من جهة ، ولارتباط الاستعارة بالبديع عند المحدثين جعلها في نظر الناقدين عنصراً زخرفياً اكثر من كونها عنصراً جوهرياً لا يخلو شعر منه .

وقد رأينا ان الامدى انكر على ابي تمام استعاراته وغلطه فيها وعدها في معظمها خروجاً على طريقة العرب الاوائل .

ويتمثل هذا الخروج في امرين .. الاول أسراف ابي تمام في الاعتماد على الاستعارة دون التشبيه .. والثاني اغرابه فيها . ان تطور الشعر العربي يدلنا على الاستعارة لم تكن صورة سائدة في القصيدة العربية في عصر ابي تمام . فقد كان التشبيه هو الصورة الغالبة . آية ذلك ان ابن طباطبا وهو يحاول ان يدل الشاعر الحديث على طريق للخروج من محنته بنى القصيدة العربية على غرار القصيدة التقليدية من حيث المعاني والتشبيه . وقد فصل القول في التشبيه وانواعه وادواته وما في التشبيهات من حسن وقبح ، وعلى نحو لافت للنظر حقاً(١٦) .

وقد اغفل الاستعارة . الامر الذي يدل على ان ابن طباطبا يرى ان يبقى التشبيه اسلوب التعبير البياني كما هو الحال عند القدماء .. غير ان سيادة الصورة الاستعارية او على الاقل وقوفها جنباً الى جنب مع الصورة التشبيهية تمثل نقلة مهمة في تطور الشعر العربي فحيث تعتمد الصورة التشبيهية على الموازنة بين الاشياء وابقاء الحدود الفاصلة بينهما . تقوم الاستعارة على تدخل الاشياء والتكثيف والايحاء والحدس .

انه تحول وانتقال من ملكة الحس والخيال القريب المتصل به الى ملكة الفكر المجرد(١٧) . اننا نجد في موقف القاضي الجرجاني من الاستعارة تطوراً قياساً الى

---

(١٦) عيار الشعر ١٠ ، ١٧ ـ ٢٧

(١٧) تطور بناء القصيدة بين امرىء القيس وابي تمام ، مجلة الفكر العربي (العدد الاول) ١٩٦٨ ، ٤٢